

الفكر الإسلامي ولغة القرآن عنصرتاني نظّم به اللّغة القوميّة

بقلم الأستاذ ممطى الزرقا

خبير الموسوعة الفقهية بالكويت
والأستاذ بكلية الشريعة (دمشق)

القرآن ، وبعض السور القصار مع فاتحة الكتاب لاداء صلواته المفروضة . وحده الاعلى ان يستعرب الشعب كله استمرابا تاما ، كشعوب شمال افريقيا والعراق بعد الفتح ، حيث اصبحوا شعوبا عربية لا يمكن التمييز فيهم بين العرب الاصليين الوافدين بعد الفتح وبين سكان البلاد الاصليين .

وبين هذين الحدين (الادنى والاعلى) لانتشار اللغة العربية مع انتشار الاسلام مراتب لا تحصى درجاتها فى مقدار ما تأخذ الشعوب التى تدخل بالاسلام من اللغة العربية . وقد يتعلم الشخص المسلم قراءة القرءان كله بالنص العربى ، ويحفظ مقاطع كثيرة منه غيبا . وقد يتعلم العربية وقواعدها فيجيدها كتابة اكثر مما يجيدها قراءة وحديثا . وقد يتخصص بعلم الشريعة والفقه فيجيد العربية كتابة ونطقا الى درجة الخطابة فيها كابنائها الفصحاء حتى انه قد يصبح من كبار شعرائها . والامثلة على هذا فى التاريخ الاسلامى كثيرة معروفة . ومن

ان نواة الجواب على السؤال الاصلى نجدها فى عبارة للمستشرق الفرنسى كود فروا دومومبين عن التلازم بين تقرب لغة اى شعب اسلامى من لغة القرآن وبين قوة اسلاميته ، حيث يقول دومومبين فى الفصل الاول من كتابه «النظم الاسلامية» ما يلى: « ونستطيع القول بشيء من المبالغة : ان نظم اى شعب اسلامى تكون اكثر اسلامية كلما اقتربت لغته من لغة القرآن . فباتخاذ هذا المبدأ نستطيع ان نضع فى الصفوف الاولى من المسلمين اولئك الناطقين باللغة العربية ، وان كان منهم من تكلم العربية بعد الفتح الاسلامى ، كحالة سكان سوريا والعراق ومصر والمغرب » (1)

اننى شخصا من القائلين بصحة هذا المبدأ الذى قرره دومومبين . وبالاستناد اليه اقول : ان التلازم قائم بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية .

اما مدى هذا التلازم فاننى ارى ان هذا التلازم حده الادنى هو ان يتعلم المسلم غير العربى آيات من

(1) النظم الاسلامية للمستشرق دومومبين ، ترجمة الدكتور فيصل السامر والدكتور صالح الشماع، طبعة دار النشر للجامعيين - مطبعة حداد فى بيروت - ايلول 1961 .

الأمثلة المصرية على هذه الإجابة كتابة وخطابة
الأستاذ الجليل العلامة الهندي الشيخ أبو الحسن
على الحسنى الندوي ، والشيخ حبيب الرحمن
الأعظمي وكثيرون سواهما .

ومما تجب ملاحظته ان خطبة الجمعة وصلوات
الجماعة في البلاد الإسلامية غير العربية ذات اثر
كبير في فهم العامة كثيرا من الالفاظ العربية وانثلاف
سممهم لها بما يقرأ فيها من القرآن جهرا ، وبما
يرد في خطبة الجمعة من آيات قرآنية واحاديث نبوية
ومواعظ عربية ولو امتزجت بشروح من خطيب
الجمعة باللغة القومية المحلية .

وكذلك يقال في دروس المساجد وقصصها
الديني لما تضمنه من استشهادات بنصوص دينية .

الإسئلة الإيضاحية :

1) نعم لولا الاسلام لما انتشرت العربية ،
ذلك لان اللغة ايا كانت لا يمكن ان تنتشر الا بأحد
عوامل اربعة : الفتح القومي ، والسهولة (نطقا
وقواعد) ، والتجارة الخارجية ، والدين .

ا - فالمغرب قبل الاسلام لم يكن يمكن ان
يكونوا قوة فاتحة في العالم تبسط سيادتها ولغتها
كما هو معلوم من امرهم في الجاهلية .

ب - واللغة العربية على سعتها ودقتها
وخصائصها الفريدة ومزاياها الجملة ليست سهلة
النطق ولا القواعد على غير اهلها ، كما هو معلوم
ايضا .

ج - والعرب قبل الفتح الاسلامي لم يكونوا
ذوي تجارة خارجية عالمية ، ولا يمكن ان يكونوا كذلك
في حياتهم القبلية المعروفة ، ولا سيما انهم ليسوا
امة بحرية . فكانت تجارتهم موسمية محصورة في
داخل الجزيرة العربية نفسها بين شمالها وجنوبها ،
وتجارتهم الخارجية رحلة سنوية الى الشام ذهابا
وايابا في فترة قصيرة ليس فيها اقامة تجارية ولا
تعامل دائم . وما سوى ذلك ليس له شأن يذكر .

د - فلم يبق الا العامل الرابع ، وهو الدين
السمح الذي قاد الفتح ، وبسط سيادة الاسلام في
العالم بعد ان جعل من العرب البداة امة حضريية
نظامية ذات رسالة عالمية، وذات قانون داخلي وقانون
دولسى .

واستتبع هذا ايضا انطلاق التجارة مع الفتح
الاسلامي ، فتوافر العاملان : الديني الذي يدعو الى
اخذ اللغة العربية لمعرفة اصول الدين العربية ،
والعامل الاقتصادي الذي يدعو الى اخذ اللغة
العربية ايضا لمصلحة الاكتساب ، لان هذه اللغة
عندئذ اصبحت الاداة الوحيدة للتفاهم في التبادل
التجاري بين الاقوام المختلفة في البلاد المفتوحة
على الاقل (وما اوسع رقعتها في الارض) لانها لغة
الدين المشتركة التي تنتشر عمليا بدافع الدين وما
استتبعه من فتح وسيادة وحكم ، ومن تعامل بين
شعوب البلاد المفتوحة على اختلاف لغاتها حين
اصبحت انظارا متعددة في دولة واحدة لغتها
الرسمية المشتركة هي العربية لغة الدين والقرآن
والصلاة .

2) اما الشق الثاني من السؤال الايضاحي
(لو لم تكن اللغة العربية لغة القرآن لما انتشر
الاسلام) فجوابي عليه : لا ، بالنفس لا بالاجاب ،
لان الاسلام رسالة تدعو الى منهاج واخلاق نظرية
وعملية تقيم الحياة على افضل طريق للانسانية ،
يقطع النظر عن لغة دستورها (القرآن) وعروبتهما .
ولكن عربية القرآن جعلت اهل اللسان ، اي العرب
انفسهم ، يتذوقون فيه مذاقا من البلاغة الرفيعة
لا يتذوقه سواهم .

فالاسلام دين صالح للانتشار على مقياس
ونطاق عالميين بسبب الطريق القويم الحكيم الذي
شقته للبشر في الحياة ، وبسبب الاسس والمبادئ
والقواعد الحكيمة المعقولة التي تتلاقى مع الفطرة
البشرية السليمة ، وتؤلف نظاما وسطا معتدلا بين
طرفي الانحرافات الشاذة في الفكر او في العمل .
ولذا كان من اهم ما يلحظه راصدوه من اعدائه
المستمررين والمبشرين اليوم بالديانات الاخرى انه
ينتشر مع التجار المسلمين ، ولو من غير العرب ،
(كجماعة التبليغ في الهند ، ومعظمهم تجار يلتزمون
بتبليغ الاسلام) في كل قطر يدخلونه ، ولو بقى
الداخلون فيه على لغتهم .

فليست العربية وكونها لغة القرآن سببا
لانتشار الاسلام ، بل الصحيح هو العكس : اي ان
انتشار الاسلام هو السبب الاعظم لانتشار العربية .
فقد قال الله تعالى في القرآن العظيم :

« يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحبيكم »

فمن الواضح ان هذا الاحياء الذى فى الاسلام ليس منوطا بلغة نصوصه ، بل بمحتواه من نظام واسباب ومناهج حياة .

ان كل ما اوضحته فى اجابات هذا السؤال الايضاحى الاول ينطبق على واقع بيئى الاقليمية ، وهى سورية فى تاريخها المعروف مما لا حاجة الى الاطالة فى ذكره .

(2) نعم من الملحوظ ان الوعي الاسلامى والوازع الدينى فى البلاد الاسلامية ، عربية وغيرها ، يقويان ويضعفان بقوة اللغة العربية وضعفها ، اعرف هذا فى تاريخ بيئى السورية ، وفى سائر البلاد الاسلامية ذلك لان انتشار الاسلام وتأثيره فى النفوس وان لم يتوقف على العربية ، لا شك ان انتشارها وازدهارها معه يزيده تأثيرا ويجعل الشعوب احسن فهما له واتصالا مباشرا بنصوصه وتذوقا لها وتأثرا . فمن المشاهد دائما فى عصرنا اليوم ان صيرورة الناس ذوى ذوق رفيع فى العربية وادبها وبلغ كلامها يزيد من تأثيرهم بالقرآن وما فيه من روائع العظات ، وبالسنن وما فيها من جوامع الكلم . بل ان كثيرا من المسيحيين من ادباء العربية وكتابها البلغاء يتأثرون بسماع القرآن فى الاذاعات تأثرا كبيرا ومنهم من يستظهر كثيرا من آياته حفظا وتجردا على لسانه فى كثير من المناسبات . فهذه البلاغة العربية الاخاذة تضيف تأثيرا اضافيا لمضمون الاسلام ومحتواه .

على ان هذا الارتباط بين قوة العربية والوعي الاسلامى هو اشد واغوى بين اهل اللسان فى البلاد العربية نفسها ، ذلك لان هؤلاء طريق صلتهم بالاسلام هى اللغة العربية ، لانها لغتهم ، فمتى ضعفت اللغة ضعفت هذه الصلة . اما غير العرب فصلتهم بالاسلام عن طريق لغتهم القومية ، فلا يتأثر الوعي الاسلامى فيهم بضعف العربية كما يتأثر هذا الوعي بضعفها بين العرب انفسهم . (ومثال ذلك تركيا اليوم ، حيث تبين ان الوعي الاسلامى فى الشعب التركى المسلم هو فى صعود رغم ما لقيت العربية فى بلادهم من محاربة فى العهد الاتاتوركى المعروف) .

لكن انتشار العربية فى شعب غير عربى لا شك انه يعطى هذا الشعب تذوقا جديدا اضافيا يزيد فى نفوس ابنائه الحسنى الاسلامى ، لانه يصلهم بمنابع الاسلام مباشرة .

(3) ان اللهجات العامية المنحرفة عن الفصحى فى كل لغة (ومنها العربية) تهذبها الثقافة ورقى المستوى العلمى فى البلاد ، ويقربها ذلك من الفصحى التى هى لغة العلم والكتابة ، ويمد دل كثيرا من انحراف اللهجات العامية ، ويستبعد فى المحادثات العادية كثيرا من الالفاظ العامية التى تمجها اسماع المثقفين ، وليس لها نسب فى اصل اللغة ويعنى عنها غيرها من الفصحى الاصيل . حتى ان من المشهود انه برقى الثقافة العامة وانتشارها يضعف الفارق الكبير فى اللهجات والالفاظ العامية بين بلد وآخر فى القوم الواحد ، وتهذب لغة المحادثة وتتقرب من الفصحى بكثرة ما يدخل فيها بين المثقفين فى احاديثهم العادية من اللفظ الفصحى . هذا امر ملحوظ بل ملموس ، ونشاهده فى بيئتنا وغيرها .

وبناء على هذه الملاحظة يبدو بديهيا ان انتشار لغة القرآن فى الاقاليم الاسلامية غير العربية او الجاليات الاسلامية فى الاقطار الغربية او الاسيوية يؤثر حتما فى لغاتها القومية ، بما يحمل القرآن اليهم من معان جديدة لا يعبر عنها تعبيرا دقيقا الا باسمائها العربية ، مثل (صلاة ، صوم ، حج ، زكاة) الخ . . . ومن مفاهيم اسلامية اوجدتها الشريعة والثقافة الاسلامية ، مثل (فقه ، حلال ، حرام ، واجب ، سنة ، حديث ، طهارة ، نجاسة) الخ . . . وهذا التأثير يقع من حيث ان الفكر الاسلامى ولغة القرآن هما عنصر ثقافى ولغوى جديد تطعم به اللغة الاقليمية .

هذا بالنسبة الى اللغات الاقليمية فى البلاد الاسلامية غير العربية او جالياتها فى بلاد الغرب .

اما بالنسبة الى اختلاف اللهجات فى البلدان او الاقاليم المختلفة لانباء لغة واحدة قومية ، فان هذا التأثير يضعف جدا فيما ارى ، لان الفكر الاسلامى عن طريق لغة القرآن انما ينصب تأثيره على اصل اللغة القومية بما يوجد فيها من الفاظ وتعابير واسماء عربية لمعان ومفاهيم اسلامية ، كما اوضحته آفنا ، اما اختلاف اللهجات فلا شأن للفكر الاسلامى فى ازالته ولكن قد يخففه فقط ، فان لغة القرآن لم تمنح فوارق اللهجات بين ابناء البلاد العربية نفسها ، بل بقي اختلاف اللهجات العربية قائما بين مصر وسورية والعراق وتونس ، والمغرب الخ . . .

والحظ ان تأثير اللهجة الاقليمية عند سواي اكثر .
5) يجب ان تحتل العربية فى بلادى مكانة
الصدارة . واقصد بذلك انه لا يجوز ان يكون هناك
احد فى بلادى لا يعرف العربية ، وانما يعرف بدلا منها
لغة اجنبية .

فالواجب ان تكون اللغة العربية وهى لغة الام فى
بلادى هى اللغة الاساسية ، وكل لغة اخرى اجنبية
تكون لغة مساعدة بحسب حاجة الثقافة العامة والأخصاء
العلمى ، والاطلاع على المصادر الاجنبية للمعرفة .

4) اننى شخصا فى كلامى العادى وحديثى
باللهجة العامية احرص على ان انتقى افضل اللهجات
الموجودة فى المدن السورية ، واقربها الى اللهجة
الفصحى ، وان اجتنب ما ينبو عنه ذوقى ، او اللهجة
الفصحى من اللهجات والالفاظ العامية فى بلادى .
لذلك اشعر ان اللهجة الاقليمية العامية فى بلادى
(مدينة حلب من سورية) لا يوجد منها فى تعابيرى
العربية المحلية (اى كلامى العادى المامى بغير
الفصحى) سوى خمسين فى المائة او اقل . والخمسون
الاخرى تقرب كثيرا فيها لهجتى العامية من الفصحى .

